Vol.3 No.4 2020
ISSN Online: 2709-7625
ISSN Print: 2709-7617

شعر الصوفياء عن مشاعرهم

(Terms of Sofis in their poetry)

الدكتور محمد فاروق*

الدكتور المفتي محمد سليم**

ABSTRACT

The article "Terms of Sofis in their poetry" bring to light that the human being is the combination of two elements (body and soul) soul is the eternal element is human being. Body of human is subordinate to disease and illness. Similarly soul can also get illness and inner disease. Human being visits doctors for care and getting betters physical health of body, likewise for the care and cure of the soul of human needs to have spiritual attachment, which is called Tasawwuf. In Muslim society, it is believed that Sufis confined to four categories (Chains or Salasil) i.e. Naqashbandiya, Chishtiya, Soharwardiya and Qadariya. In the same context it is also accepted that some other names of different Salasil exist in different societies and books.

This article in an attempt to that the sufis achieve the knowledge of Shariah including the expertise of Arabic language, literature, grammar, linguistics and poetry etc. They presenting their presentiment in poetry and the publication of sofi literature will save above mentioned knowledge from various perspectives. This research study has proved that the poetry of the sufis has great significance in the Arabic literature, especially in sufis presentiment.

Keywords: sufi poetry, sufis poetry, sufi terms, tasawwuf terms, tasawwuf poetry.

إنما التصوف هو المنهاج العملي للإسلام من أوله إلى آخره فمن لم يتناوله تطبيقا لم يفهم أي شيئ منه بما أن التطبيقية هي استراتيجية الظاهرة ولو جستياتيه الباطنة. لذلك إنما الإقبال عليه يتطلب الخوض والاستغراق فيه عمليا ، والقيل والقال لا يعتبر فيه أبدا لأن الإنسان إذا لزم صحبة الصوفي العارف بالله الذي يروضه بأعمال التصوف من الأذكار والأوراد وتاليا يمرّه بالمجاهدات العنيفة لإخضاع نفسه لله تعالى ورسوله ﷺ وشريعته المطهرة و تحليته بالأخلاق المحمودة والآداب الحميدة حتى انقطاعه الكلي إلى الله تعالى عما سواه بأسره طلعت عليه شموس المشاهد الإلهية والمكاشفة تنور قلبه بالعلوم اللدنية و فتحت عليه الأسرار الكونية بالفيوضات الإلٰهية لا يمكن بيانها بلغة ولا يستطاع تعبير عنها لأن المشاهدة لم يقيدها لفظ ولا يحددها تعبير ، وهذا ما يحدث عموماً و تشهد عليه تجربتنا اليومية الاعتبارية والمسلّم أن التحديث ليس كالمعاينة مهما يبلغ الكمال ، مما ينجلي بالوضوح أن التصوف هو المشاهدة من الأول إلى الآخر ، واتصال النظرية به ليس إلا زائفا عرضيا بما أن المرء إذا أراد دخوله فى نظام لا بد له أن يطلع على مبادئه العامة وهذا الاطلاع ليس بتجرة و لا علم تطبيقي إلاّ أنه يشوقه إلى العمل بما قد اطلع عليه. كذلك جملة المعلومات والعلوم التي توجد منثورة فى كتب الصوفية لم مخط حدّ الاطلاع الاما الذي هو بيان المشاهدة ولبس المشاهدة نفسها ، الذي هو تقرير عن التجربة وليس التجربة نفسها حقيقته لم تدرك إلا بالاقتحام فيه عمليا. وموضوعنا الشعر التى روى عن الصوفياء وفيها بيان مشاعرهم التى يحسّ الصوفي فى باطنه عن الحقيقة فالتصوف ليس بالقيل والقال بل تجربة ، ليس بنظرية ، بل مشاهدة. من ثم لا يفهم الصوفي إلاّ الصوفي.

منه ينشأ أن التعبير عما يشاهده الصوفي أو يشعر فى الباطن ويعاينه لم يكن كليا بل جزئيا يقدر على فهمه من يغوض فيه لا غير. هذا ما يشترط لقارئ التصوف أن يحصل قبل كل شيء على الأهلية لدراسة الأدب الصوفي ، وخصوصا الشعر التى عقد والبيان مشاعرهم عن فيوض الباطنية وشروطها على ما يلى:

1- العلم بأن الصوفي يحمّل اللفظ من المعاني أكثر مما يحتملها عرفيا لأنه يتطرق إلى إفصاح عما ليس للغة عهد ولا تعبير بها عنه ، فالصوفي لم يفصح بالمفهوم الاعتيادي إلا أن بلوّح به إلى ما يريد الإفصاح عنه.

---

*. الأستاذ المساعد بالكلية الحكومية ، كوجرة ، باكستان

**. موظف التحقيق بقسم اللغة العربية وآدابها ، جامعة الكلية الحكومية بفيصل آباد، باكستان

Vol.3 No.4 2020
ISSN Online: 2709-7625
ISSN Print: 2709-7617

2- لزوم صحبة العارف بالله الكامل والمجالسة والمحاورة معه للتعارف على الدقائق الباطنية والحقائق الروحانية كما هي بالمذاكرة والتفاهم ، والرجوع الفوري إليه عند اعتراء المشكلة خلال المطالعة.
3- الإلمام بقدر من المصطلحات الصوفية لإدراك عموم المرادات الصوفية ، و بالمدلولات التي قد ألقى الصوفى على المألوفات من الألفاظ والصور قد اتخذوا من الأدب التقليدي واستخدموها تشبيهات و مجازات واستعارات و كنايات عن الحقائق الكونية والأسرار الإلٰهية.
4- المشاركة الوجدانية والتعاطف الأدبية مع الأدباء الصوفية لكي يفهم ما يريده الأديب ، لا ما قد اصطنعه القارئ قبلا عن التصوف و قرّره فى ذهنه من تعصب ما.
5- تسلح الدارس ''بالإيمان القوي وتحصين نفسه عقديا حتى لا يتأثر بما يسمونه بالشطح.[1]
6- دراسة الأدب الصوفي العميقة بالرزانة والوعي لأن القراء ة الخاطفة له ''غير مجدية ، و ربما تكون مملة فلا بد للقارئ من أن يقدح زناد فكره و يغوص وراء المعاني غير مكتف بظاهر اللفظ حتى يتوصل إلى المعانى المقصودة والمرامى المستهدفة فهو أدب من لون خاص ولناس بأعيانهم.[2]
7- النأى عن القدح فى الصوفية وعفة اللسان حيث أنه '' لا يتناولهم إلا بما يليق بهم ، فهم من طراز فريد و نوع خاص ذلك الذي ترك الدنيا وأقبل على الآخرة بغية الوصال و الكشف والمشاهدة.[3]
8- الإحساس بأن كلّ فكرة قبل ظهور ها فى لباس اللغة قد مرت عليها العديد من مراحل التأثرية وللتأثرية أوجه للفهم واتجاهات للتعبير كما أن التجربة لا تتخثر على تعبير واحد ولا وجه واحد.
9- الشعور بالعوائق الباطنية والعقبات الظاهرية صادفها الصوفي إذا حاول التعبير عما ورد عليه بالانهلال القلبي والإفاضة الغيبية.
10- التقدم فى المطالعة إلى الإمام بالإيقان بما يأتي إليه من الأديب الصوفي والثقة والاعتماد على النفس لأن الهداية لم تترك أثرها المطلوب إن لم تقبل بالإيمان والثقة.
11- العرفان بأن التصوف رحيق الألباب وروح الإسلام يسرى في قالبه كلّه بدون تعين كما أن الروح هو سار فى البدن كله ولم يقدر أحد على تعيين محله أو تحديد مقامه فى البدن برغم ذلك ، علينا أن نوقن بوجوده لأن قيام بدننا نفسه يشهد على حقيقة الروح ، والمسلّم أن الروح من أمر الله وأمر الله لا يقيده لغة ولا يحدده بيان بيد أن فهمه يستطاع بطريق التصور والتجربة ، فكذلك شأن ما ينهل على قلوب الصوفية و يفيض الله تعالى عليهم من الغيوبات والكشوفات ، وما يعبر عنها الصوفية مقبّلين بقيود اللغة الحسية والألفاظ الطبعية.

هذه من بعض شروط الأهلية لدراسة الأدب الصوفيخصوصا الشعر فى بيان مشاهداتهم ومشاعرهم فإذا ملكها الدارس أو القارئ عاتق النجاح والفيض الفائض باليقين ، وإن يفقدها فله تحكمه وتحيزه ، لا شيء من الفن المنشود.

بين الأدب الصوفي وغيره:

إنما استقصاء الأدب الصوفي والموازنة بينه وبين غير الأدب الصوفي يوضح جليا ما يقاومه الصوفي من الإعاقات عند التعبير عن تجاربه ومشاهداته وما يستقل به. وهذه الإعاقات والاستقلالات هي التي قد تمثلت فى الفروق بين الأدب الصوفي وغيره وأفرزت إمكانات التعبير للصوفي والمشاكل فيه و حددت كيفية استكشافه عن إمكانية اللفظ والتركيب و بالتالى بينت العملية التي قد اختارها الصوفي في هذا المحيط. أن يذكر عن الأدب اختصاراً:

الأوّل: أن الأدب الصوفي يجسد الانهلال القلبي والإفاضة الغيبة ويستطلع قصديا بإمكانيات اللفظ والتعبير فالصوفي الأديب يناضل مستمرا ما لديه من الوسائل اللغوية ليحل المشاكل ويتسلق العوائق يصادفها فى طريقه إلى إظهار مراده. هذا المناخ المتأرج بالكيفيات القلبية والمكاشفات الغيبية قد ألجأت الصوفية إلى تمييزهم '' بين طريقتين من طرائق التعبير ، طريقة الإشارة وطريقة العبارة ، أو طريقة التلويح و طريقة التصريح ، والإشارة عندهم تعني التلويح هو الرمز الذي يومئ ولا يصرح ويشير إلى ما لا يستطيع التحليل الموضوعي أن يتناوله بدرجة كافية لإيغاله في أعماق الذات أو لتشبثه بما هو فوق الواقع ، فعن طريقة أي الرمز يمكننا أن نصور اللامنتهي والأزلي ونجسده ، ويمكننا أن نشير إلى المتناقضات ، إذ إنه ما من سبيل إلى التعبير عن التجربة الصوفية التي تنتظم أحوالاً وجودية عالية ، كالفناء والحبّ و الاتحاد إلا باستخدام لغة مرموقة شبيهة بلغة الشفرة التي تحمل طابع الأسرار.''[4] ذلك أن اللغة كما هي فى شكلها الموضوعي تكفي '' تحليل الظواهر الفزيائية التي تخضع للإدراك الحسي والتجربة المادية المباشرة ، وأما الظواهر النفسية والحيوية وهي ما تعني به التجربة الصوفية فإنها أحوج إلى لغة أخرى هي لغة

Vol.3 No.4 2020
ISSN Online: 2709-7625
ISSN Print: 2709-7617

الرمز.‘‘[5] بما أن الوضعية المادية لا تسع الوضعية الروحية لكونها تتجاوز نطاق العقل. هذه النكتة يحلله الدكتور عاطف جودة نصر بالتفصيل ناجحا إلى حدّ ما بقوله:

والرمز الصوفي عالم خاص لكى ندخله لا بد أن نتجاوز العقل لأنه إنما يعمل وفقاً لمبدء الذاتية وعم التناقض ، والرمز على العكس من ذلك يحتضن الأطراف المتناقضة ، وهو لا ينكشف لنا عن طريق التصورات المجردة وإنما يكشفه الحدس الذي يمس باطن الذات فيجلو لها حقائق تجل عن الفهم لو أردنا أن نتناولها بعدة المنطق التقليدي والمعرفة العقلية ، ومعنى هذا أن التجربة الصوفية ينبغى أن تفسر بمنطق آخر عاطفي وجداني ، لأننا بعد لسنا في مجال فزيائي يعتمد على المعطيات الحسية. هذا المنطق المفسر للتجربة الصوفية بما فيها من وضعية روحية و ما فيها من أذواق وتلويحات وظواهر نفسية و وجودية يحرص على إثبات التمزق والوحدة المتواترة التي تستقطب الأطراف المتقابلة.

وتوضيح ذلك أن الصوفي إنما ينشد خلاصة ويحقق علوه وهو مغروس في طينة هذا العالم الذي يبدو موقفاً نهائياً مفروضاً ، لكنه في ارتباط بالعالم لكنه يرتع في بحبوحة ما يزهد فيه و يرغب عنه ، وهو يفي فناء لوجود ، ويغيب غيبة لحضور ، ويكشف عن الوحدة فى الكثرة ، وعن اللامحدود واللامتناهي ، وهكذا تنموالنزعة الصوفية تحت تأثير ديالكتيك وجداني يتسم بالتواتر الجامع بين الأطراف.

وها هنا ينبغي أن نميز بين لغة موضوعية ولغة رمزية وفقا للتميز بين ما هو فزيائي و ما هو نفسي حيوي ، ومن البدهي أن التجربة الصوفية لا يجدي في تاولها اللغة الأولى لأنها تجربة ذات طابع نفسي حيوي ، ولذ نجدها لغة مرموزة تواء م ما تعبر عنه من أحوال نفسية و وجودية عالية ، كما نجد التجربة الصوفية تستضيء بالحدس.[6]

هذه التجزية تفصل جزئيا المشكلة تطرحها البيئة التي يعمل فيها الصوفي ، وأضف إليها دقة الأفكار نفسها يكشف الصوفية عنها فإن المسئلة لا تقتصر على العقدات الحدسية محضا لأن الصوفية لا يلبسون الألفاظ والعبارات أحاسيسهم وعواطفهم ومشاعرهم بل أيضا أفكارهم المنشئة من تجاربهم المحسوسة ، وهذه الأفكار بنفسها تنطوي على المعضلات التي تتفرع من عسارة الفهم على الناس حتى العلماء. فإنما دقة الأفكار العسيرة الفهم و رقة الأحاسيس و العواطف تجتمع لتكوين شخصية الصوفي الأدبية والعلمية و ترتيب أسلوبه شعرا ونثر بحيث أن فقد إحداهما يكون فقد الأخرى. وقد أشار إليه لسان الدين ابن الخطيب : ‘‘ أن لطائف التوحيد أرق و ألطف من أن تخرج بكشف العبارة.‘‘[7] وتشهد عليه العسارة تظهر في هذه الأبيات لأبى محمد الهروي:

ما وحّد الواحد من واحد	إذ كلّ من وحّده جاحد
توحيد من ينطق عن نعته	عارية أطلها الواحد
توحيد إياه توحيده	و نعت من يتعته لاحد[8]

هذه الظاهرة لا يقابلها أحد من الأدباء غير الصوفية فإنهم يعملون فى البيئات الفزيائية يتسنى لهم الكلّ مما هم فيه وهم له و هو لهم.

الثاني: أن الأدب الصوفي يتجاوز حيز الحس بينما غيره لم يتخطاه لأن الدوافع لكليهما مختلفة جدا. فالأدب المعهود العام ينشأ من الحسّ ، يبقى متورطا فى الحسّ ، يرجع إلى الحسّ ، لطافته ملمسوسة بالحس و حد دقته الحدس فبكله يدور على الحس و معطياته ؛ حينما الأدب الصوفي منشأه ماوراء الحس ، لا يزال متذوقا في هذه الماورائية ، يرجع إلى عالم الحس بالضرورة لنفس الإفادة لا غير ، لا يفهم دقائقه ولطائفها إلا من صحب الصوفية أو هو نفسه صوفي ، ولو استطاعت العامة والعلماء يتذوقه إلى حد الفهم المحمود.

الثالث: أن الأدب يستهدف الستر والخفاء لأنه ينطوي على الأسرار الإلهية والمغيبات الربانية التي إفشاء ها يحث المحجوبين أن يرموا الصوفية بالكفر والحلول وغيرهما. فإنهم يستخدمون الألفاظ المعهودة والعبارات المألوفة إشارات وتلويحات إلى الحقائق العليا والدفائن المكنونة الكونية فيدركه من يحظي بالمعرفة بالله تعالى ، ويحرم منه من كان محروما. وعكسا له ههنا الأدب المعهود لا حظ له من كلّ هٰذا ، لا بقدر و لا مقدار.

الرابع: أن الأدب الصوفي هو أدب الوهب ، يمثل الوهبية الخالصة لأنه يحتوي على العلوم التي لا تأتي بطريق الدراسة والكتساب بل بطريق الفيضان الإلٰهى وصدر النبى ﷺ ، فيها حتمية و شمولية ، بينما الأدب العهدى يدور على الدراسة والاكتساب ويرتع فى الأفكار المقتبسة منهما.

الخامس: أن الأدب الصوفي تتمثل فيه طهارة النفس وصفاء القلب وسمّو المشاعر وعلوّ العواطف و رهافة الإحاسيس لا يتصورها غيره أبد لأن مادته تختلف عما لغيره بالإضافة إلى الجولان الثنائي فى الأدب الصوفي يجول فى العوالم و الأكوان لا تخيل إلى غيره و تاليا شمولية الأدب الصوفي حتمي ثابت ، لأن الجسدية لم تبق إلا مرتكزا فى المادة مهما تحلقت ، والماورائية لم تزل متعاليا عن المادة مهما تسقطت . هذا هو ما ينجلي إذا قورن الأدب الصوفي

Vol.3 No.4 2020
ISSN Online: 2709-7625
ISSN Print: 2709-7617

بغيره فى مضامين الحبّ حيث إن كليهما يتضمنان المضامين من البذل والتضحية والألم والافتضاح والتهتك والفراق والوصل وحدة اللهف وشدة الولوع ، ولكن الحق أنه شتان بين ما يتطرق إليه الصوفي فى تناولها وما يسرع إليه غير الصوفي فى قبوله حتى أن الضعف البدني يقضي على معظم حب العذري بينما الهزل الجسدي يعجّل حبّ الصوفي كما أن زوال القوى بالهرم فى العذري يستولى على حبه ، والهرم فى الصوفي يعلي حبه و يصعده. وهكذا يخاف العذري افتضاح نفس حبه حينما خوف الصوفي من الافتضاح ليس بالنسبة إلى نفس الحب ، بل بالنسبة إلى الأسرار الإلهية والمعارف الربانية تفيض عليه من حبه لله كما أن الحب فى الصوفي يقربه إلى محبوبه قربا حتى يملك و يتصرف في كل ما هو لمحبوبه بينما الحب فى العذري يدفعه قربا وبعدا إلى الطينة المادية و يتركه بأيد خالية.

أخيلة الصوفية ومشاعرهم والتعبير عنها فى الشعر:

نظرا إلى ما سبق ليتسهل لنا تقدير كيفية تعبير الصوفية عن أخيلتهم ومشاعرهم و أفكارهم الرئيسية وأغراضهم المهمة وأوجهه على سبيل المثال كما يأتي:

معرفة الله تعالى:

1- صلة العبد بربه هي أعظم من أفكار الصوفية وأخيلتهم فتجعل أهم الأغراض يستطلعها في نثرهم وشعرهم وكل فكرة ما سواه تدور على هذا الرئيس. هذه الصلة لم نستكشف إن لم ينطو الإنسان على نفسه ، مصداقاــ : '' من عرفه نفسه عرف ربه'' كما يوضح هذا الرأس إمام الأولياء على بن أبى طالب رضى الله عنه:

دواؤك فيك مــا تـبـصـر و داؤك مـنك و مـــا تشعرُ
أتزعم أنــك جـرم صـغـير و فيك انطوى الـعالـم الأكبر
فأنـت كـتاب الـمبيـن الـذي بـأحـرفـه يـظـهـر الـمضـمر
و مــا حــاجـة لك من خارج و فـكـرك فيـك و مــا تصدر [9]

هذه الخطوط الجليلة التي قد رسمها سيدنا على رضي الله تعالى عنه لفهم رباط الإنسان بالله و به مع الكون ، ولتعيين مكانته العليا في ما يحيط به من كل صوب ، ولم يزل الصوفية يجرون عليها ويبينونها عبر العصور بما أنها تتضمن جميع المسائل المتعلقة بالوجود المطلق و ظهوره فى الكثرة بالتجليات وشهوده فى كلّ شي ء كما هو و ترابطه الوحيد مع الإنسان.

الجـهـد للمـعـرفـة:

2- يتشعب من هذه الصلة جهاد الإنسان للمعرفة بالله تعالى والأدب الصوفي بالحق يرتكز في المعرفة بالله من أوّله إلى آخره لأن الصوفي يبذل كل المجهود للحصول على المعرفة لأنها على حد قول مالك ابن دينار رضى الله عنه:

إن عـرفـان ذى الـجلال لــعـزّ و ضـيـاء و بـهـجـة و ســرور
وعــلـى الــعارفـين أيـضا بهاء و عـلـيـهـم من الـجـلالـة نور
فـهـنـيـئـا لـمـن عرفك إلهي هــو والله دهــره و مـسرور [10]

استغراق فى محبة الله:

3- استكشاف الصوفي للصلة بالله ومحاولته للمعرفة به ينجمان من حبه لله تعالى و يرجعان إليه لأن الحب الإلهي هو قوام جملة الصلة والمعرفة ، والله تعالى وحده ليستحقه بالحق. ذلك الوجه أن الحب فى الصوفي لا يعرف حدّا ولا فصلا لأن محبوبه ليس له حدّ و لا عدّ فهو الله الواحد القهار الواجب الوجود لا يقابله شيء ولا يماثله أحد ، لا يقيده مكان ولا بحدده زمان فإنه الحقيقة الماورائية لا يدرك كنهها أحدٌ. لأجل ذلك إنما الحبّ فى الصوفي شديد إلى مدى حتى تتكشف إليه فكرات الصوفية فى الفناء والبقاء كما قد نسجهما فيه أبو الحسن الصباغ رضى الله عنه فى الأبيات الآتية:

بـقـائى فناء في بقـائي مـن الهوى فياويـح قـلـب فـي فـنـاه بقـاؤه
وجـودي فـنــاء في فـنــاء فإننـى مـع الأنـس يـأتينـي هنيـئاً بلاؤه
فيا من دعـا المحـبوب سرّا بسره أتاك المعنى يـوماً أتاك فناؤه [11]

كما أن الولهان والتهاب الحب يظهر فى البسطامى رضى الله عنه حين أنشد :

سـقـانـى شـربـة أحـيـا فـؤادى بـكـأس الـحـب من بحـر الـوداد
فـلـولا الله يـحـفـظ عـارفـيـه لـهـام الـعـارفـون بـكـل وادى [12]

Vol.3 No.4 2020
ISSN Online: 2709-7625
ISSN Print: 2709-7617

ورابعة العدوية (ت 185ه) رضى الله عنها تفصح عن فكرتها فى الحبّ المصحوب بالإيمان الكامل بالله تعالى فإنها غنّت في معنى المحبة:

أحبك حبّينِ : حب الهوى و حبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له فكشفك لى الحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا[13]

الرابعة الشامية تنشد شهود المحبوب كل لحظة إلى حدّ الفناء:

حبيب ليس يعدله حبيب و ما لسواه فى قلبي نصيب
حبيب غاب بصري و شخصي ولكن عن فؤادى لا يغيب[14]

وللسري إلسقطى (ت 253ه) رضى الله نه من لم يكن الحب فى قلبه لم يعرف سر الحياة كما هي:

من لم يبت والحب حشو فؤاده لم يدر كيف تفتت الأكباد[15]

فقد منّ الله على من له حرقة المحبة كما أنشد رضى الله عنه فيه:

القلب محترق والدمع مستبق والكرب مجتمع ، والبصر مفترق
كيف القرار على من لا قرار له مما جناه الهوى والشوق والقلق
يا ربّ إن كان شيئ فيه لي فرج فامنن عليّ به ما دام بى رمق[16]

هكذا جل الأدب الصوفي يدور على الحب الإلٰهي وثمراته والجدير بالذكر أن تطرق الصوفية إلى الحب الإلٰهي ليس بيابس بل هو أخضر من كلّ ما سواه كما ينظر فيما مرّ أن الأشعار تترقرق بالعذوبة والتصاوير الفنية والموسيقى اللطيفة والعواطف الرائقة تسري إلى القلوب و تنزه النفوس حتى قد أصبح التكلم فى المجردات نوعيا للتجسمات.

المشاهدة:

إنما الحب الإلٰهى يثمر العلوم الإلٰهية والأسرار الكونية والمعارف اللدنية قد عبر عنها الصوفية بألوان الأسلوب. وأهم منها التوحيد الإلٰهي وأسرار التي هي أرق الألباب و أدق الأفكار قد عبر عنها الصوفية باللغة المحاطة بالحيسات ظاهرا وباطنا بأنهم ألبسوها باب الظاهر لمعاني الباطن و فطن إليها من حظ مما لهم . و من ليس له الحظ حمل عباراتهم على ما لم يعرفوه فرماهم تارة بالإلحاد وتارة بالكفر ، حينا بالحلول وحينا بالزندقة ، هم يربئون مما تقول عليهم. فانظر على سبيل المثال في هذين البيتين للحلاج رضى الله عنه:

مزجت روحك فى روحى كما تمزج الخمرة بالماء الزلال
فإذا مسّك شيء مسّني فإذا أنت أنا في كلّ حال[13]

و نسي الناقد أن اللفطات كالمزاج والخمرة والماء الزلال و تصوير المسّ مشفوعة بالحال و لغلغل الضميرين المخاطب والمتكلم – بفسها تقيم التمييز المنشود بين المحب و محبوبه ، العبد و ربه. فمن أين الاتحاد أو الحلول؟ الحق أن الصوفي العارف الكامل بالله يمر عليه وقت إذ يشاهد حقيقة الوجود الحق والمعية الحقيقة الحاصلة للخلق بالله تعالىٰ. هذه المشاهدة تؤدي إلى الاستنتاج أن الوجود فى الحقيقة واحد وهو لله تعالى هو واجب الوجود ، فليس ثابتا بالذات لغيره عزوجل ، منه ينجم أن الوجود لما سواه تعالى ليس إلاّ بظهور التجليات الوجودية تصح للمعية الجامعة الشمولية.فوجود الشيئ بوجود الحقّ ، وإلا لا شيء ولا وجود له. هذه الظاهرة قد سمّاها الصوفية وحدة الوجود يرتكز في كشف أسرارها وغوامضها معظم مصنفات الصوفية ورسائلهم وشعرهم. والحق أنهم قد أدوا ما لهم من الإسهام فى التعبير عن هذه الدقائق والحقائق الكونية بأدق الأساليب وأحسن الطرق المعنوي لم يسبق له مثيلٌ ، كما قد اصطنع ابن الفارض (ت 236ه) قدس سره في أسلوبه الشامخ.

وصرّح بإطلاق الجمال ولا تقل بتقييده ميلاً لزخرفِ زينة
فكلّ مليح حسنه من جمالها معارٌ له ، أو حسن كلّ مليحة
بها قيس لبنى هام ، بل كلُّ عاشق كمجنون ليلى ، أو كثير عزّة
فكلّ صباً منهم إلى وصف لبسها بصورة حسنٍ ، ولاح فى كلّ صورة
وما ذاك إلا بدت بمظاهر فظنّوا سواها و هي فيهم تجلّت
بدت باحتجاب ، واختفت بمظاهر على صبَّغِ التلوين فى كلّ برزَة[14]

فالإنسان إذا وفّق بفضل الله تعالى رفعت له الستائر وانكشفت الحقائق الكونية وانجلت وحدة الوجود بأصلها كما يفصله ابن الفارض رحمه الله:

Vol.3 No.4 2020
ISSN Online: 2709-7625
ISSN Print: 2709-7617

فطيف خيال الظلّ يهدي إليك فى كرَى اللّهو ما عنه الستائر شقّت
ترى صورَ الأشياء تُجلِي عليك من وراء حجاب اللّبس فى كلّ خلعة
تجمّعت الأضداد فيها لحكمة فأشكالها تبدو على كلّ هيئة(15)

كما أن ابن عربى (ت 836هـ) رضى الله عنه يحاول بأسلوبه السامي الحلّ من عقدات الوجود فيما يلي:

إن الوجود لعين الحكم والذات تحقيق آلامى والذاتى
وحكمها صور بالذات ظاهرة للعين فى الحال لا ماض ولا آتي
نقول : ذا فلك ، نقول : ذا ملك في أيّ كون من أرض و سمٰوات
فالصور مختلف والعين واحدة و إنّ فيه لما يدري لآيات
وهو الذى ينتفي إن كنت تعقله و حكم أعياننا عين الدلالات
فما ترى صوراً فى العين قائمة إلّا بوجهين من نفي و إثبات
إنّ الأمور لتيجري نحو غايتها وعزّة الحقّ ما أدري بغايات
الأمر كالدور أو كالخط ليس له فى الامتداد انتهاء كالكميات
بالفرض كانت له الغايات إن نظرت عقولنا ليس هٰذا فيه بالذات
إن الوجود لدار أنت ساكنها بالوهم فى عين ما يحوي من أبيات
وما هنالك أبيات لذي نظر وإنها صور أواد علات
إنّ الذي أوجد الأعيان في نظري لصانع صنعه بغير آلات
لولم يكن صنعه لم يدر ذو نظر بأنه صانع جميع ما يأتي
و إنّها صور للحسّ ظاهرة لكنها بين أحياء و أموات (16)

وحدة الشهود:

كما أن الوجود لله الواحد تعالى كذالك الفعل له عزوجل بحتا فالأشياء جميعها مظهر للفعل الإلهى فانظر كيف يصور ابن عربى قدس الله سره العالي هذه الظاهرة فى الأبيات الآتية المصلصلة بالموسيقى الكونية المنسجمة من فعالية الأسماء الحسنى ، وتبصّر فى أروع التصاوير على المستوى الفني:

الحمد لله الذي صيرا وجودنا لفعله مظهرا
لو أنّنا نعلم أرواحنا بالوجه فى الصبح إذا أسفر
كما علمنا بالجسوم التي عينها الليل إذا أدبر
كنا به نعلم أعياننا لكن جهلناها لأمر طرا
من ظلمة الطبع وأخلاطه فاعتم اللّيل وما أقمرا
وألبس الأنجم أنوارها لما رأى عسكرها شمّرا
حين رمت بالرجم أرواح من يسترق السمع كما أخبرا
انظر إلى الأرض وخيراتها وما بها الرحمٰن قد أظهر
لا بدّ أن يصبح عمرانها كمثل ما أصبح وادى القرى
عروشها خاوية حين لم يغير الناس بها المنكرا
عمّ بلاء الله سكانها فأهلك المقبل والمدبرا
بذا أتانا النصّ من عنده فى محكم الذكر كذا سطرا

....

وبعد ذا ترجع أفكارها إلى أمام ماله من ورا
لا فعل فى العالم إلا له فإن ما سميته منكرا
فحكمه ذلك عينه فلتعتبر قولى حتى ترى
به وإن شئت بأعياننا لتشهد الأسماء والمحضرا

....

لولا كتاب سابق فيكم نبذتم لفعلكم بالعرا
ما شرع الرحمٰن أذكاره إلا لكى تعصمكم كالعرى
لأنها أعصم ما يتّقى لما بدا الرحمٰن قد قدرا
تعوّذوا منه به أسوة بسيد يعلم ما قرّرا

Vol.3 No.4 2020
ISSN Online: 2709-7625
ISSN Print: 2709-7617

من يعرف الحقّ و أسراره يكن لما جئت به مظهرا
من لم يرى الحقّ بأنواره يكن لما أذكره منكرا
العمى لا تدرك أبصارنا إلاّ ظلاماً وهي شيء يرى
وليس يدري بالذي قلته إلا الذى فى غيبه قدى سرى
فالغيب لا يدركه غائب إلا الذى فى غيبه قدى أحضرا
أوضحت أمرا ليس يدري إلا الذى فى شأنه قد جرى
....
ما هو كالخنس فى سيرها بل هو كالبدر الذي أزهرا
أظهر عينَ الشمس فى ذاته وهو على ما لمن أبصرا [17]

هٰذا الاقتباس الطويل من شعر ابن عربى رضى الله عنه لم يرسم التصاوير الفنية الرائقة للفعل الإلهى فى التكوين فقط ، بل يبرز أيضا دقة نفس الأفكار الصوفية و رقة الحقائق الكونية عسيرة الفهم على النّاس حتى العلماء. على الرغم من هذه العسارة إنما الصوفية لم يزالوا يبينون الدقائق الكونية والحقائق التكوينية بأبلغ التعبيرات وأروع الفنون لرفع ستار الجهل ولغفلة عن العيون وترسيخ التوحيد الإلٰهية البحتة فى القلوب ، كما اختار النابلسى (ت 1173ه) رضى الله عنه فى هذه الأبيات أسلوبا مختلفا أسهل بقدر من ابن العربى قدس الله سره ولكن بدون أن يترك طنين الموسيقى العذب طريقها المباشر إلى نفس القلب هو محطّ العلوم اللدنية والأسرار الإلٰهية.

ظهر الوجود بسائر الأشياء متجلّيا جهراً بغير خفاء
ولكل فيه هالك قد قال إلاّ وجهه الباقي عظيم بقاء
واعلم بأنه لا ترى منه سوى ما أنت رائيه من الأشياء
إذ أنت شيء هالك فى نوره والنّور يحرق حلّة الظلماء
إنّ الوجود عن البصائر غائب من حيث ما هو ظاهر للرائي
لا تدرك الأبصار منه سوى السّوى وهى الحوادث جملة الأفياء
إن الوجود الحقّ عنك ممنع فى عــزّة و ترفع و علاء
وعلمت رتبته وأنت لذاته راء وتنكر أنت أنك رائي
إذ لم تكن تعلم به من حيث ما هو في تدانٍ للورىٰ وتناء
ولقد أتى هو ظاهر هو باطن فافطن له في محكم الأنباء [18]

موسيقى الفعالية الإلهية تتقطر مهلا مهلا في تضاعيف الكون مظهرا مظهرا ، تدوّي بها الأشياء درجة درجة حتى تغني بها الأكوان علنا جلوة جلوة.

الحقيقة المحمدية:

إنما الحقيقة المحمدية على صاحبها الصلوٰت والتسليمات هي حقيقة الموجودات أصلها النور من نور الله تعالى وقد مر سابقا أن الكتشافات العلمية العصرية قد أثبت بالتجارب الطبيعية العلمية أن العالم قد تكوّن من النور ، وعند المسلمين أجمعين. هٰذا النور هو الحقيقة المحمدية منه تدفق كل الظهور كما يشهد عليه نصّ الحديث. هذه الفكرة الأساسية أن مصنّفات الصوفية التي ترتكز في كشف القناع عن الحقائق الكونية قد ألقت الأضواء الواسعة عليها حيث أن كل حقيقة من الحقائق الكونية ترجع إلى هذه الحقيقة الجوهرية – الحقيقة المحمدية. طبقا له إن ''الفصّ المحمدي'' فى ''فصوص الحكم'' و الأبواب الأخيرة من أبواب ''الإنسان الكامل'' تدور على هذه هذه الحقيقة العليا كما قد تمثلت فى هذه الأبيات الأنيقة للنابلسي رضى الله عنه:

نور طٰه المصطفى منه جميع الكائنات وبه كان الترقّي فى رفيع الدرجات
كــفــه غيث لقلــوب المتقين ومزيل عطش الأمة يوم الحسرات
كل روح هي من نــور سناه ظهرت كل جسم هو منه ظاهر بالحركات
وصلاتي وسلامــي للذي أنــواره أشرقت فى الكون حتى زال سرّ الظلمات
وعلى آل وصحب بهما ما عبدالغنى بدّل الله له سوئ الخطا بالحسنات [19]

فالحقيقة كونها كما فى حديث النور الصحيح لأجله لقد ركز الصوفية عليها تركيزا إنها قد أشعل الحبّ لرسول الله ﷺ فيهم بما أن حبه ﷺ حب الله ذاته كما تشهد عليه الوفرة النصوص أنهم قد طوره فى فنّ عظيم لم يهمله ناقد أدبي ذو بصيرة أدبية. و ممن برع فى المديح النبوي هو الإمام البوصيري (ت 696ه) رضى الله تعالى . فانظر كيف فى قصيدته البردية الميمية المشهورة فى العالم يضمن جملة الخيوط فى نسيج الحقائق التكوينية المتعلقة بنور رسول الله ﷺ

Vol.3 No.4 2020
ISSN Online: 2709-7625
ISSN Print: 2709-7617

وبشرف كونه ضامنا لجود الله وفضله ونعيمه تعالى وبه تعالى متصرفا فعالا فى العوالم ، بدون أن يفقد أي خيط من الأدبية الكاملة الشاملة والروعة البالغة والسمونسيج وحده:

وكيف تدعوا إلى الدنيا ضرورة من لولاه لم تخرج الدنيامن العَدَمِ

محمّد سيد الكونين والثّقلَيـ ... نِ والفَرِيقَين من عُرْبٍ و من عَجَمِ
هو الحبيب الذي تُرجىٰ شفاعته ... لكلّ هولٍ من الأهوال مقتحم
دعا إلى الله فالمُستمسكون به ... مستمسكون بحبلٍ غير مُنفصمِ
فاق النبّين فى خلق و فى خلق ... ولم يدانوه فى علم و لا كرم
وكلّهم من رسول الله ملتمسٌ ... غرفا من البحر أو رشفاً من الديم
منزّه عن شريك فى محاسنه ... فجوهر الحُسن فيه غير منقسمِ
دَع ما ادّعته النصارى فى نبيهم ... واحكم بما شئتَ مدحاً فيه واحتكم
وانسُب إلى ذاته ما شئتَ من شرفٍ ... وانسُب إلى قدره ما شئتَ من عِظَمِ
فإن فضلَ رسول الله ليس له ... حدّ فيعرب عنه ناطقٌ بِفَمِ
كالشمس تظهر للعينين من بعدٍ ... صغيرة و تكلّ الطّرف من أمَمِ
وكيف يدك فى الدنيا حقيقته ... قومٌ نيام تسلّوا عنه بالحُلُم
فمبلغ العلم فيه أنّه بشر ... وأنّه خير خلق الله كلهم
يا أكرم الرُسل ما لي من ألوذبه ... سواك عند حُلول الحادث العمم
ولن يضيق رسول الله جاهك بي ... إذا الكريم تحلّى باسم منتقم
فإن جودك الدنيا وضرّتها ... ومن علومك علم اللَّوحِ والقلم[20]

كما أن يثني عليه ﷺ مجدد الألف الثانى السرهندى (ت 1034ه) رحمه الله بأسلوبه الساذج المتدفق من العواطف اللطيفة والأحاسيس الرائقة والأفكار الناضجة بقوله:

''إن الحقيقة المحمدية ظهور أوّل و حقيقة الحقائق ، بمعنى أن سائر الحقائق سوائ كانت حقائق الأنبياء الكرام ، أو حقائق الملائكة العظام عليهم السلام كالظلال لها وأنها أصل جميع الحقائق قال عليه وعلى آله الصلاة والسلام : أول ما خلق الله نوري. وقالﷺ : خلقت من نور الله ، والمؤمنون من نوري. فبالضرورة تكون تلك الحقيقة بين سائر الحقائق و بين الحق جل وعلا ، ويكون وصول أحد إلى المطلوب بلاتسوطه ﷺ محالاً ، فهو نبى الأنبياء والمرسلين ، وإرسال رحمة للعالمين ....''[21]

فإن جلّ الأفكار الصوفية تستغرقها الحقيقة المحمدية ومدائح النبى ﷺ وكل ما يتعلق بها يعبر عنها الصوفية بالأساليب المناسبة لها ، الموافقة معها.

الكشف:

العلوم اللدنية والأسرار الإلٰهية يسجلها الصوفية لا تفيض على قلوبهم إلا بالمشاهدة والمكاشفة والمعاينة ، لذاك إنّما الصوفى يفصح عن فكراتهم فيها كما يوضحها إبراهيم الدسوقي رضى الله عنه فى الأبيات التالية:

وتجلّى لي المحبوب في كلّ وجهة ... فشاهدته فى كلّ معنى وصورة
وخاطبني مني بكشف سرائري ... فقال أتدري من أنا قلت: منتي
فأنت منائي بل أنت دائماً ... إذا كنتُ أنت اليوم عين حقيقتي
فقال: كذاك الأمر لكنه إذا ... تعينت الأشياء كنت كنسختي[22]

مما ينجم أن المشاهدة والمكاشفة هى غاية المتصوف لأن بها ترفع الحجب وتشاهد الطعلة الإلهية و تفيض العلوم والمعارف على القلوب.

وسيلة النجاح:

النجاح فى المشاهدة والمكاشفة لم يأت إلاّ أن يكون السالك متمسكا للشريعة المطهرة ، متجليا بالأخلاق النبوية. فبالتالي إنما أفكار الصوفية لم تزل دائرة على اتباع الشريعة والتأكيد على محاربة النفس والمجاهدة والصبر ومعاناة المصائب والآلام فى الطريق إلى المعرفة بالله والتجمل بالأخلاق العالية والآداب الحميدة. هٰذه التفكيرات قد عبر عنها الصوفية في جميع كتبهم و رسائلهم شعرا ونثرا ، تمثل روائع الأسلوب الأدبى و قمم البلاغة والفصاحة.

هٰذا هو ما خلاصة الأفكار العالية والأخيلة السامية بالاختصار قد برع الصوفية فى تسجيلها بأروع التعابير و أرق الأساليب حتى قد نصبوا بالصراحة معالم الأدب الإسلامي العالمي. وهذه الظاهرة تشير بالوضوع إلى الحقيقة أن

Vol.3 No.4 2020
ISSN Online: 2709-7625
ISSN Print: 2709-7617

التحريك لتجديد الأدب الإسلامى بميزاته المخصوصة لم يمر بمراحل النجاح الكامل إن لم يشرب من مناهل الإسلام الأصلية هي فى الأدب الصوفي والتصوف ، كما أن تاريخنا السالف أكبر شاهد عدل على أن الأدب الإسلامي قد عرفه أدبا إسلاميا على المستوى العالمي حينما سقي من معادن التصوف شعوريا أو لا شعوريا ، فالمتنبي كما نعرفه هو الذي هو بعد ما روي من هذه المعادن وكذا شأن الآخرين من كبار الأدباء طارت صيتهم فى أرجاء العالم.

الهوامش

1- على الخطيب ، الدكتور ، إتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن العربى ، دارالمعارف القاهرة مصر ، 1404ه ، ص 486
2- المصدر السابق ، ص 487 ، 488
3- المصدر السابق ، ص 488
4- عاطف جودة نصر ، الدكتور ، شعر عمر ابن الفارض – دراسة فى فنّ الشعر الصوفى ، دارالأندلس للطباع والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان ، بدون السنة ، 144
5- المصدر السابق
6- المصدر السابق ، ص 145
7- محمد بن عبدالله المعروف بلسان الدين ابن الخطيب ، روضة التعريف بالحب الشريف ، دارالكتب العلمية ، لبنان، 1424ه ، ص 347
8- المصدر السابق
9- ديوان الإمام على (جمعه الأستاذ نعيم زرزور) ، دارالكتب العلمية ، لبنان، 1424ه ، ص 86
10- ابى طالب المكى محمد بن على بن عطية الحارثى ، الامام الشيخ ، علم القلوب ، باب وصف العارفين ،دارالكتب العلمية ، لبنان، 1424ه ، ص128
11- بهجة الأسرار ، ذكر احترام المشائخ والعلماء له وثنائهم عليه الشيخ أبوالحسن على بن أحمد المعروف بابن الصباغ، ص 416
12- التصوف الإسلامى ، ص 76
13- احياء العلوم ، كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا ، 4/ 369
14- عفيف الدين عبدالله اليافعى ، روض الرياحين فى حكايات الصالحين، دارالكتب العلمية لبنان، 1421ه ،ص 191
15- صفة الصفوة ، 2/ 537
16- المصدر السابق
17- ديوان الحلاج (وضع حواشيه وعلق محمد باسل عيون السود)، دارالكتب العلمية ، لبنان، 1423ه ، ص 152
18- كشف الوجوه الغرّ لمعانى نظم الدرّ بشرح تائية ابن الفارض للإمام القاشانى ، ص 264
19- المصدر السابق ، ص 277
20- ابن عربى ، الشيخ الأكبر أبى بكر محى الدين بن على بن محمد الطائى الحاتمى ، ديوان ابن عربى ،دارالكتب العلمية ، لبنان، 1422ه ، ص 99 - 100
21- المصدر السابق ، ص 103- 105
22- عبدالغنى بن اسماعيل النابلسى ، الامام الشيخ ، ديوان الحقائق ومجموع الدقائق للنابلسى ، دارالكتب العلمية ، لبنان، 1424ه ، ص 25
23- المصدر السابق ، ص 100
24- يوسف بن اسماعيل النبهانى ، المجموعة النبهانية فى المدائح النبوية ، دارالكتب العلمية ، لبنان، 1417ه ، ص 7-8 ، 10
25- جواهر البحار فى فضائل النبى المختار (جمعه عبدالسلام العمرانى) ، دارالكتب العلمية ، لبنان، 1418ه ، 2 / 255 - 256
26- ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ص 257